والشرف؛ بارك اللَّه في أوقاته. ثم تُوفي رحمه اللَّه في آخر شهر رجب سنة ١٢٢٣ ثلاثٍ وعشرين ومائتين وألف.

(١٩٦)

(الإمام المُتوكِّل على اللَّه شَرَف الدين ابن شَمْس الدين ابن الإمام المهدي أحمد بن يَحْيَى)[١]

قد تقدم تمام نسبه في ترجمة جدّه. ولصاحب الترجمة اسمان أحدهما: شرف الدين وهو الذي اشتهر به، والآخر يَحْيَى ولم يشتهر به. ولد خامس عشر شهر رمضان سنة ٨٧٧ سبعٍ وسبعين وثمانمائة بحصن حضور، وقرأ على جماعة من العلماء منهم عبد اللَّه بن أحمد الشظبي في التذكرة والأزهار وشرحه وفي الخلاصة في علم الكلام، وكان ذلك في أيام صغره. ثم أعاد قراءة التذكرة على عبد اللَّه بن يَحْيَى الناظري، ثم قرأ على والده شمس الدين «الطاهرية» وشرحها لابن هطيل، ثم الكافية وشرحها، والنصف الأول من المفصل. ثم رحل إلى صنعاء في سنة (٨٨٣) فتمَّم قراءة المفصل على الفقيه عليّ بن صالح العلفي، ثم قرأ شرحه على الفقيه مُحمَّد بن إبراهيم الظفاري، وقرأ عليه الرضي شرح الكافية، وقرأ عليه الشافية في الصرف وشرحها، وتلخيص المفتاح والمفتاح للسكاكي على السيد الهادي بن مُحمَّد، وقرأ عليه الكشّاف، ومختصر المنتهى وشرحه للعضد. وقرأ في الحديث «شفاء الأوام وأصول الأحكام» وبعض جامع الأصول على الإمام مُحمَّد بن علي الوشلي. وقرأ في كثير من الفنون، وبرع في العلوم العقلية والنقلية، واشتهر علمه، وظهرت نجابته، وأكبّ على نشر العلم. ثم دعا إلى نفسه في العشر الأولى من جمادى الأولى سنة (٩١٢) وكان بالظفير، فبايعه العلماء والأكابر، وتلقاها أهل جبال اليمن بالقبول. وكانت جهات تهامة واليمن الأَسفل إلى السلطان عَامر بن عبد الوهاب، وما زالت بينه وبين الإمام مجاولات ومصاولات، ثم اتفق خروج طائفة من الجراكسة إلى سواحل اليمن في سنة (٩٢١) فكاتبوا السلطان عَامر بن عبد الوهاب أن يعينهم بشيء من الميرة لكونهم خرجوا من الديار المصرية لمقاتلة الإفرنج الذين في البحر، يتخطفون مراكب المسلمين، فامتنع عَامر، فدخلوا بلاده ومعهم البنادق. ولم يكن لأهل اليمن بها عهد إذ ذاك فبعث إليهم جيشاً كثيراً من أصحابه، وهم في قلة فوقع التلاقي، فرمى الجراكسة بالبنادق. فلما سمع جيش عَامِر أصواتها ورأوا القتلى منهم فرّوا، فتبعهم الجراكسة يقتلون كيف شاؤوا. ثم فَرَّ منهم عَامر وتبعوه من مكان إلى مكان حتى

(١) ترجمته في: الأعلام: ٨/ ١٥٠؛ معجم المؤلفين: ٤/ ٢٩٧.

وصل إلى قريب من صنعاء فقتلوه، ثم دخلوا صنعاء ففعلوا أفاعيل منكرة، ثم خرجوا قاصدين للإمام، فوقع الصلح على أنهم يبقون في صنعاء، والإمام يبقى في ثلا. واشترطوا ملاقاة الإمام، فأشير عليه بعدم ذلك لما جبل عليه الجراكسة من الغدر والمكر ففعل، فلما علموا ذلك عادوا إلى القتال فلم يظفروا بطائل. ثم في خلال ذلك بلغهم قتل سلطانهم قانصوه الغوري على يد ابن عثمان صاحب الروم فرجعوا، ولكن قد عبثوا باليمن وقتلوا النفوس وهتكوا الحرم ونهبوا الأموال. وبعد ذلك دانت صنعاء وبلادها وصعدة وما بينهما من المدن بطاعة الإمام. ثم إن الإمام غزا إلى بلاد بني طَاهر، فافتتح التعكر وقاهرة تعز وحراز. ثم كان خروج سُليمان باشا بجند من الأتراك ووصل إلى زبيد وتعز، ثم استفتح الإمام جازان وبلاد أبي عريش وسائر الجهات التهامية. ثم حصل بين الإمام وولده المطهّر بعض مواحشة لأسباب مشروحة في سيرته. ووقع من المطهر بعض الحرب لوالده ولأخيه شمس الدين، واتفقت أمور يطول شرحها كانت من أعظم أسباب استيلاء الأتراك على كثير من جهات اليمن. واستقر الإمام بكوكبان، ثم انتقل إلى الظفير، وامتحن بذهاب بصره فصبر واحتسب، وأقام لا شغلة له بغير الطاعات حتى (توفاه اللَّه) ليلة الأحد وقت صلاة العشاء الآخرة سابع شهر جمادى الآخرة سنة ٩٦٥ خمس وستين وتسعمائة، ودفن بحصن الظفير، ومشهده هنالك مشهور. وله مصنفات منها (كتاب الأثمار) اختصر فيه الأزهار، وجاء بعبارات موجزة نفيسة شاملة لما في الأزهار، وحذف ما فيه تكرار، وكان على خلاف الصواب. وله شعر جيد، فمنه القصيدة المسماة «بقصص الحق» التي مطلعها: [من البسيط]

لَكُم من الحبِّ صَافيه وَوافِيه ... ومِنْ هَوَى القَلْبِ بَاديه وخَافِيه

ومن شعره القصيدة التي قالها عند فتحه لصعدة وزيارته لمشهد الإمام الهادي وأولها: [من الكامل]

زُرناكَ في زَردِ الحديدِ وفي القَنَا ... والمَشْرفيَّةِ والجيادِ الشُّزَّبِ[1]

وَجَحافل مِثْل الجبالِ تَلاطَمتْ ... أمْواجُهنَّ بِكُلِّ أصْيَد أغْلَبِ[2]

مِنْ كُلّ أبلجَ مِنْ ذُؤابة هَاشم ... وَبِكُلِّ أرْوَعَ مِنْ سُلالةِ يَعْرُبِ[3]

وأعاجِمٍ تُركٍ وَرُومٍ قَادةٍ ... وأحابشٍ مِثْلِ الأسودِ الوُثَّبِ

(١) الزَّرَدُ: حَلَقُ المِغْفَر والدِّرْع، أو الدِّرْع نفسه. القنا: الرماح. المشرفية: السيوف المصنوعة في «المشارف أو المجلوبة منها، وقد عُرفت بجودتها. الجيادُ الشُّزَّبُ: المُضمَّرة، أو المذلَّلة والمروَّضة.

(٢) الجحافل: الجيوش الكثيرة العدد، الواحد: جحفل. الأصيد: المتكبر المزهوّ بنفسه، أو كلّ ذي حول وطولٍ من أهل السلطان. الأغلب: ذو العُنق الغليظ، والأغلب: الأسد.

(٣) الأبلج: الواضح الجبين. ذؤابة القوم: شريفهم والمقدم فيهم. الأروع: الذكيُّ الفؤاد.